

ملخص عن المحاضرات غير المقدمة في مادة النظرية الخليلية الحديثة د. نسيم بوغرزة

السُّنَّةُ الْأُولَى مَاسْتَر (لِسَانِيَاتٌ عَامَّةٌ)

01 - مفهوم الاستقامة وما إليها:

يُمِيز "سيبويه" في الكتاب بين السلامة الراجعة إلى اللفظ، والسلامة الخاصة بالمعنى، كما يُمِيز أيضاً بين السلامة التي يقتضيها القياس (أي النظام العام الذي يميز لغة من لغة أخرى) والسلامة التي يفرضها الاستعمال الحقيقي للناطقين، وذلك في قوله في باب "الاستقامة من الكلام والإحالة": «فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب، فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتك أمس، وسأتيك غداً، وأما المحال فأن تنقض أول كلامك بآخره فتقول: أتيتك غداً، وسأتيك أمس. وأما المستقيم الكذب فقولك: حَمَلْتُ الجَبَلَ، وشربتُ ماء البحر ونحوه، وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه نحو قولك: قد زيدا رأيت، وكى زيدُ يأتيتك وأشباه هذا. وأما المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس»⁽¹⁾.

فواضح من هذا الكلام أن "سيبويه" يحدد مفهوم السلامة وعلاقتها باللفظ والمعنى من ناحية، والقياس والاستعمال من ناحية أخرى. فهناك المستقيم الحسن، والمستقيم القبيح، والمستقيم المحال، ويمكن صياغة هذه المعاني بشكل آخر أكثر وضوحاً:

- فالمستقيم الحسن = السليم في القياس والاستعمال جميعاً.
- والمستقيم القبيح = السليم في القياس وغير السليم في الاستعمال.
- وأما المستقيم المحال = سليم في القياس والاستعمال، غير سليم من حيث المعنى⁽²⁾.

ومن ثم جاء التمييز المطلق بين اللفظ والمعنى، ومعنى ذلك أن اللفظ إذا حدد أو فسّر باللجوء إلى اعتبارات تخص المعنى فالتحليل هو تحليل معنوي، أما إذا حصل التحديد والتفسير على

1 (سيبويه، الكتاب، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ج1، دار الجليل، ط1، بيروت، 1991، ص25-26.

2 (عبد الرحمن الحاج صالح، المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية الحالية في العالم العربي، ص379.

* ههنا معان يمكن صياغتها صياغة رياضية مجردة، وهي معان لم يتوصل إليها المحدثون في اللسانيات ما عدا "شومسكي" عندما ميز بين الحمل النحوية (القواعدية) والجمل غير النحوية، فالتكلم السامع المثالي في لغة ما يدرك من خلال قوانين محددة (هي المعرفة اللغوية أو قواعد إنتاج الكلام وفهمه أو الآلة المولدة... كما يسميها شومسكي) الجمل المستقيمة المحالة، والجمل غير المستقيمة في القياس والاستعمال. يُنظر: خليل أحمد عمارة، في نحو اللغة وتراكيبيها منهج وتطبيق، عالم المعرفة، ط1، السعودية، ص56-57.

اللفظ دون أي اعتبار للمعنى فهو تحليل نحوي، والخلط بينهما - كما يقول الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح - يعتبر خطأ وتقصيرا «وقد بنى على ذلك النحاة أن اللفظ هو الأول، لأن هو المتبادر إلى الذهن أولا ثم يفهم منه المعنى، ويترتب على ذلك أن الانطلاق في التحليل يجب أن يكون من اللفظ في أبسط أحواله وهو الانفراد»⁽³⁾.

2-1 - مفهوم الانفراد :

ينطلق النحاة الأوائل في تحليلهم للغة من "الاسم المفرد" باعتباره النواة أو الأصل الذي تفرع عنه أشياء أخرى. وقد أطلق "الخليل" على هذا المفهوم مصطلح "الاسم المظهر"⁽⁴⁾ (≠ المضمرة)، كما أطلق عليه "ابن يعيش" (ت643هـ) و"الرضي الإستراباذي" (686هـ) مصطلح اللفظة⁽⁵⁾. واللفظة في اللسانيات الخليلية عمادها الوقف والابتداء، فهي أقل ما يُنطقُ به مما ينفصل فيُسكت عنده ولا يلحق به شيء. أو يبتدئ فلا يسبقه شيء. فما ينفرد وينطلق، أو ما ينفصل ويبتدئ هو صفة الانفراد. ومما تجدر الإشارة إليه، أن كل وحدة لغوية قابلة للانفصال عما قبلها أو ما بعدها من الوحدات؛ بمعنى أن كل وحدة لغوية يمكن الابتداء بها والوقوف عليها حسب موقعها في الكلام.

فمن الألفاظ ما ينفصل ويبتدئ مثل: "الغلام" في نحو قولنا: "الغلام حاضر" و"حضر الغلام". ومنها ما ينفصل ولا يبتدئ مثل كالضمير المتصلة كـ"تاء الفاعل" و"نا المضاف إليه في نحو قولنا: "خَرَجْتُ" و"كتائبنا". ومنها ما يبتدئ ولا ينفصل مثل حروف المعاني كحروف الجر والنصب والجرم في نحو قولنا: "في التأيي السلامة" و"لن يحضر زيد" و"لم يحضر زيد".

وتُحمل "اللفظة" النواة على غيرها من المُثَل والنماذج فتفرع إلى لفظات هي نظائر للنواة، ولكنها أوسع منها، بتعاقب زيادات قبلية وبعديّة عليها دون أن تفقد وحدتها أو تنفرد فيها أجزاءها، فلا تخرج عن كونها لفظة (أي قطعة واحدة). وسمى النحاة هذه القابلية للزيادة يمينا ويسارا "التمكن" ولاحظوا أن لهذا التمكن درجات تترتب كالاتي:⁽⁶⁾

أ - المتمكن الأمكن، الذي يحمل معناه بداخله ولا يحتاج إلى غيره، ويتمثل في اسم الجنس المنصرف كرجل وفرس وشجرة.

3 (المرجع السابق، ص379.

4 (المرجع نفسه، ص379-38.

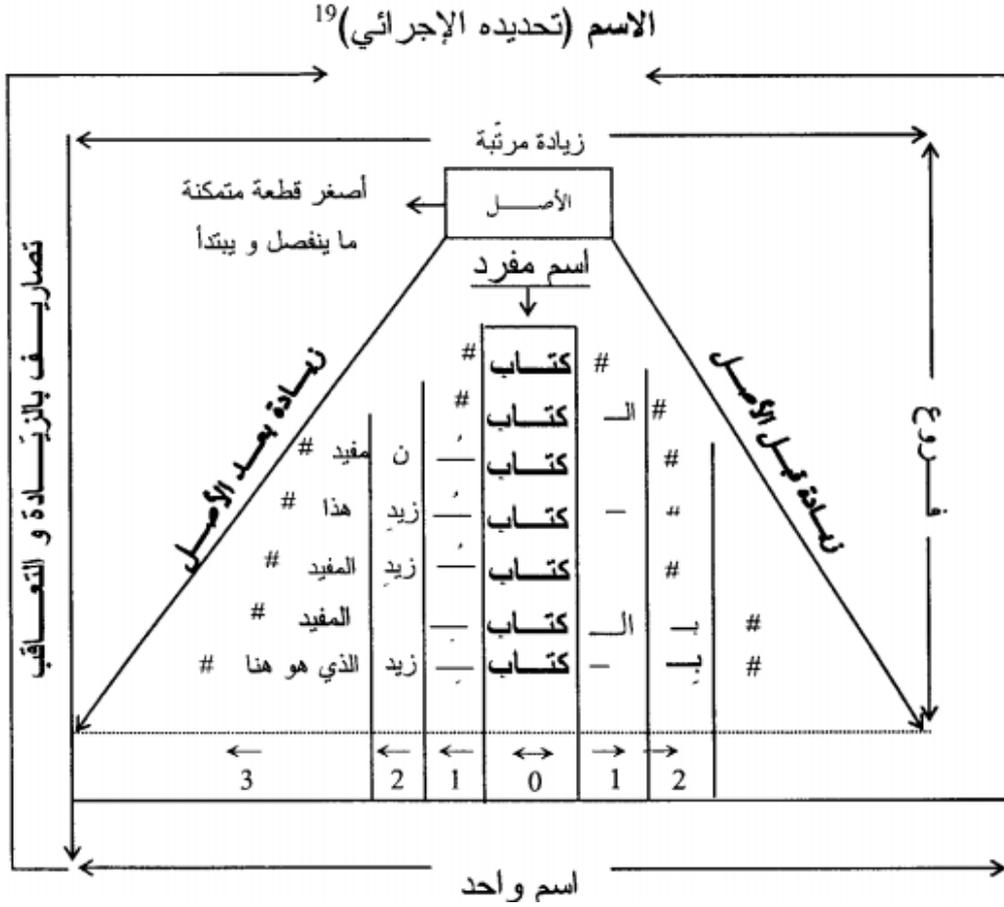
5 (المرجع نفسه، ص379-380.

6 (المرجع نفسه، ص379-380.

ب - المتمكن غير الأمكن، ويتمثل في الممنوع من الصرف.

ج - غير المتمكن ولا أمكن، ويتمثل في الاسم المبني.

وانطلاقاً من التصور السابق لمفهوم اللفظة يحدد عبد الرحمن الحاج صالح اللفظة الاسمية تحديداً إجرائياً كما يلي: (7)



حيث يمثل الرمز # : علامة الابتداء والوقف أو علامة الانفصال والابتداء

يتبين لنا من خلال التحديد الإجرائي السابق للاسم ما يلي (8):

أ - أن التحويل بالزيادة والتعاقب هو الذي يحدد الوحدات في النظرية الخليلية.

ب - أن الوحدات الناتجة عن النواة بحملها عليها هي نظائر للنواة من حيث إنها وحدات تنفرد أولاً ومتفرعة عنها بالزيادة ثانياً. أي أنها فروع لأصل واحد (النواة)، فيتكون التقابل التالي: (الفرع = الأصل + زيادة).

7 (المرجع السابق، ص: 381.

8 (عبد الرحمن الحاج صالح، المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية الحالية في العالم العربي، ص382.

ج - أن الوحدات المحمولة بعضها على بعض تكون مجموعة ذات بنية تسمى في الاصطلاح الرياضي بالزمرة (structure de groupe).

2 - 2 - مفهوم الكلمة واللفظة:

انطلق النحاة الأوائل في تحليلهم للغة من مستوى اللفظة باعتبارها أصغر وحدة من الكلام مما ينفصل ويتبدى، وهي أقل ما يمكن أن ينطق به مما يصلح أن يكون مبنيا على اسم أو فعل، أو مبنيا عليه اسم آخر أو فعل. وبناء على هذا المفهوم فإن العبارات التالية: رجل، الرجل، مع الرجل، رجل الغد، رجل قام أبوه أمس، الرجل الذي قام أبوه أمس... كل واحدة منها بمنزلة اسم واحد أي "اللفظة"⁽⁹⁾ بتعبير "الرضي" لا كلمة.

ولقد عرّف "سيبويه" هذه الوحدة وعبر عنها في أماكن عديدة من "الكتاب" بعبارة "كالاسم الواحد" أو "بمنزلة الاسم الواحد"، ومن ذلك قوله عندما تعرض لموضوع النعت: «فأما النعت الذي جرى مع المنعوت فقولك: مررت برجلٍ ظريفٍ قبل، فصار النعت مجرورا مثل المجرور لأنهما كالاسم الواحد»⁽¹⁰⁾. ثم راح يمثل للنعت الذي يقابل الزيادة على المنعوت النواة بزيادات متفاوتة، على النحو:

- مررتُ برجلٍ عاقِلٍ كَرِيمٍ مُسْلِمٍ.
 - مررتُ برجلٍ أَيْمًا رَجُلٍ.
 - مررتُ برَجُلٍ حَسْبِكَ من رَجُلٍ.
 - مررتُ برَجُلٍ كافِيكَ من رَجُلٍ.
 - مررتُ برَجُلٍ هَمَّكَ من رَجُلٍ.
 - مررتُ برَجُلٍ نَاهِيكَ من رَجُلٍ.
 - مررتُ برَجُلٍ ما شئتَ من رَجُلٍ.
 - مررتُ برَجُلٍ شَرَعِكَ من رَجُلٍ.
 - مررتُ برَجُلٍ هَدَّكَ من رَجُلٍ.
- فهذا كلُّه على معنى واحدٍ.

9 (تفتقر اللسانيات الغربية إلى مفهوم اللفظة، ولذا اقترح د/ عبد الرحمن الحاج صالح على بعض اللسانيين الغربيين أن تسمى (Lexie). انظر، أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية، ص 95.

10 (سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 421-433.

أما الكلمة عند النحاة الأوائل فهي أدنى عنصر تتركب منه "اللفظة"، إذ تحدد بالموضع الذي تظهر فيه في داخل المثال (الحد). وعلى هذا فالكلمة كاصطلاح نحوي ليست دائما مورفيما (مونيما بمفهوم الوظيفيين) أقل ما ينطق به مما يدل على معنى. بل هي العنصر الدال الذي يمكن أن يحذف من (اللفظة) دون أي ضرر أو تغيير للعبارة، كالحذف لحرف الجر من لفظة "بالرجل". فخروجه لا يسبب تلاشي الاسم.

أما العنصر الدال الذي إذا حُذِفَ أو استبدل بشيء آخر أدى إلى تلاشي العبارة التي يدخل فيها "كالنون" في "نَدَّهَبُ" و"النَاء" في "اِفْتَعَلَ"، فهذه مورفيمات وليست كلما؛ لأنها عناصر من بنية الكلمة، فهي داخلة في صيغتها وليس لها الاستقلال النوعي الذي للكلمة⁽¹¹⁾. ويمكن أن تمثل لها بحروف الزيادة في الـمميزان الصرفي في نحو: رجع وأرجع ورضاجع ورجع واسترجع وتراجع. ومن هنا يمكن التفريق بين تلك الزيادات الداخلة على النواة ببقاء هذه الأخيرة دون تغييرها أو تلاشيها فيكون ما يدخل ويخرج فتبقى اللفظة الأصل كلمة، أما ما كان زائدا على الأصل ويدخل في بنيتها الأصلية فهو مورفيم.

نص للتحويل:

يَقُولُ سَيَبَوِيهِ: «مَرَزْتُ بِرَجُلٍ حَسَنٍ أَبُوهُ، وَمَرَزْتُ بِرَجُلٍ كَرِيمٍ أَخُوهُ، وَمَا أَشَبَهُ هَذَا، نَحْوُ: الْمُسْلِمِ وَالصَّالِحِ وَالشَّيْخِ وَالشَّابِّ. وَإِنَّمَا أُجْرِيَتْ هَذِهِ الصِّفَاتُ عَلَى الْأَوَّلِ حَتَّى صَارَتْ كَأَنَّهَا لَهُ لِأَنَّكَ قَدْ تَضَعُهَا فِي مَوْضِعِ اسْمِهِ فَيَكُونُ مَنْصُوبًا وَمَجْرُورًا وَمَرْفُوعًا، وَالنَّعْتُ لِغَيْرِهِ. وَذَلِكَ قَوْلُكَ: مَرَزْتُ بِالْكَرِيمِ أَبُوهُ، وَلَقِيتُ مُوسَعًا عَلَيْهِ الدُّنْيَا، وَأَتَانِي الْحُسْنَةَ أَخْلَافُهُ، فَالَّذِي أَتَاكَ وَالَّذِي أَتَيْتَ غَيْرُ صَاحِبِ الصِّفَةِ، وَقَدْ وَقَعَ مَوْضِعَ اسْمِهِ وَعَمِلَ فِيهِ مَا كَانَ عَامِلًا فِيهِ، وَكَأَنَّكَ قُلْتَ: مَرَزْتُ بِالْكَرِيمِ، وَلَقِيتُ مُوسَعًا عَلَيْهِ، وَأَتَانِي الْحُسْنَ، فَكَمَا جَرَى بِجَرَى اسْمِهِ كَذَلِكَ جَرَى بِجَرَى صِفَتِهِ». الْكِتَابُ (22/02).

3 - مفهوم الموضع والعلامة العدمية:

إن المواضع التي تتعاقب عليها الكلم، وتترتب فيها مع النواة (أي الاسم المفرد)، بعمليات الوصل (simple concaténation)⁽¹²⁾، هي خانات تحدد بالزيادة التدريجية، إذ تمثل هذه الزيادات

11 (عبد الرحمن الحاج صالح، المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية الحالية في العالم العربي، ص 379-382.

12 (المرجع نفسه، ص 383.

التحويلات التفرعية التي يتم من خلالها الانتقال من الأصل إلى مختلف الفروع أو العكس (ردّ الفروع إلى أصلها)، وعلى الرغم من الاختلاف الموجود، من حيث الطول والقصر بين العبارات التي تظهر بالتحويل التفرعي في داخل المثال المولد للفظة (schème générateur)؛ (رجل، الرجل، بالرجل، رجل الغد، رجل قام أبوه أمس.. الخ.) إلا أنها تُعدُّ عبارات متكافئة بالاصطلاح الرياضي، ولا يخرجها ذلك عن كونها لفظة. وبهذه العمليات التحويلية الخيلية يتحدد موضع كل عنصر في داخل المثال، كما في الرسم التالي: (13)

حرف جر	أداة التعريف	النوأة الاسمية	علامات الإعراب	التتوين والمضاف إليه	الصفة
→	→	↔	←	←	←
2	1	0	1	2	3

وللإشارة فإن الموضع التي هي حول النوأة الاسمية يمينا ويسارا تدخلها الزوائد (العناصر اللغوية)، وتخرج منها بعمليات الوصل، وقد تكون فارغة، أي خالية من العنصر؛ لأن الموضع شيء وما يحتوي عليه شيء آخر. فكل تلك المواضع تُكوّن مثال الاسم، وحتى لا يقع القياس من الاسم ككلمة مفردة أي مجردة مما يدخل عليها، وبين الاسم مع الزوائد الداخلة عليه أطلق عبد الرحمن الحاج صالح على هذا الأخير مصطلحا ورد عند "الرضي" و"ابن يعيش" وهو اللفظة الاسمية أو الفعلية. وهذا الخلو من العنصر مع بقاء أو ثبات الموضع هو ترك للعلامة وخلو منها. ويطلق عبد الرحمن الحاج صالح على هذا المفهوم العلامة العدمية (Expression zéro)⁽¹⁴⁾، وتختفي هذه العلامة في موضع لمقابلتها لعلامة ظاهرة في موضع آخر، فعلاقة التذكير العدمية تقابلها علامة ظاهرة في المؤنث (عالم - عالمة). وعلامة المفرد العدمية تقابلها علامة ظاهرة في التثنية والجمع. وعلامة الابتداء العدمية (التجرد من العوامل) تقابلها علامات لفظية ظاهرة. وتنطبق العلامة العدمية أيضا على التقابل بين الحروف الصوتية، كعدم غنة الباء في مقابل غنة الميم وكلاهما له مخرج واحد.

ويمكن تمثيل هذا التقابل كما يلي:

مسلم / ∅	مسلم / ة	مسلم / ان	مسلم / ون	مسلم / ات
----------	----------	-----------	-----------	-----------

13 (عبد الرحمن الحاج صالح، "أقائم أحوك" وطريقة تفسيره عند سيويه والرضي بالاعتماد على مفهومي الموضع والمثال، والمدرسة الخيلية الحديثة والدراسات اللسانية الحالية في العالم العربي، ص 383-384.

14 (ويرمز لها بالعلامة ∅، وتعني عدم وجود العلامة الظاهرة، والواقع أن عدم وجود العلامة هي في حد ذاتها علامة. انظر الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح، أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية، ص 34-35. والمدرسة الخيلية الحديثة والدراسات اللسانية الحالية في العالم العربي، ص 383-384.

إن هذه الطريقة في تحليل الكلام، واكتشاف البنية الجامعة للكمية الكبيرة من الأجزاء، قد بناها النحاة الأولون على عدد من المفاهيم والتصورات، وعدد من الأساليب في علاج الكلام، فالنحاة العرب ينطلقون من اللفظ في ظاهره، ولكن لا يتناولون الكلام جملة جملة، وقطعة بعد قطعة، فيقابلون بينها لإظهار الفوارق من حيث صفاتها الذاتية كما هو الشأن عند البنويين (الانطلاق في التحليل من ظاهر الكلام فقط)، بل يحملون هذا النحو على ذلك حتى يظهر الترتيب والنظم (لا الصفات الذاتية فقط). وعليه فإن مفهوم الموضع، وكذلك المثال لا يوجد مثلهما في اللسانيات الغربية إطلاقاً، وهو أعظم فارق يفترق فيه النحو العربي عن اللسانيات الغربية الحديثة.⁽¹⁵⁾

نصوص للتحليل:

1. قال سيبويه: «زعم الخليل رحمه الله ويونس جميعاً أنه يجوز: ما أتاني غير زيد وعمرو. فالوجه الجر. وذلك أن غير زيد في موضع إلا زيد وفي معناه، فحملوه على الموضع كما قال:

فلسنا بالجبال ولا الحديدًا

فلما كان في موضع إلا زيد وكان معناه كمعناه، حملوه على الموضع. والدليل على ذلك أنك إذا قلت غير زيد فكأنك قد قلت إلا زيد. ألا ترى أنك تقول: ما أتاني غير زيد وإلا عمرو، فلا يقبح الكلام، كأنك قلت: ما أتاني إلا زيد وإلا عمرو». الكتاب (334/02).

2. وقال أبو حيان في تفسير قوله تعالى «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (69)»: «المائدة»: «وَقَرَأَ عُثْمَانُ، وَأَبِيٌّ وَعَائِشَةُ، وَابْنُ جُبَيْرٍ، وَالْجَحْدَرِيُّ: وَالصَّابِئِينَ. قَالَ الرَّحْمَشِيُّ: وَهِيَ قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ. وَقَرَأَ الْحَسَنُ، وَالزُّهْرِيُّ: وَالصَّابِئُونَ بِكَسْرِ الْبَاءِ وَضَمِّ الْيَاءِ، وَهُوَ مِنْ تَخْفِيفِ الْهَمْزِ كَقِرَاءَةِ: يَسْتَهْزِئُونَ. وَقَرَأَ الْقُرَّاءُ السَّبْعَةُ: وَالصَّابِئُونَ بِالرَّفْعِ، وَعَلَيْهِ مَصَاحِفُ الْأَمْصَارِ، وَالْجُمْهُورُ. وَفِي تَوْجِيهِ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ وَجُوهٌ: أَحَدُهَا: مَذْهَبُ سَيْبَوَيْهِ وَالْخَلِيلِ وَنُحَاةِ الْبَصْرَةِ:

أَنَّ مَرْفُوعٌ بِالْإِبْتِدَاءِ، وَهُوَ مَنْوِيٌّ بِهِ التَّأَخِيرُ، وَنَظِيرُهُ: إِنَّ زَيْدًا وَعَمْرُو قَائِمٌ، التَّقْدِيرُ: إِنَّ زَيْدًا قَائِمٌ

15 (عبد الرحمن الحاج صالح، أرقام أخواك وطريقة تفسيره عند "سيبويه" و"الرضي" بالاعتماد على مفهوم الموضع والمثال.

وَعَمَرُوا قَائِمًا، فَحُدِفَ خَبْرُ عَمَرٍ لِدَلَالَةِ خَبَرِ إِنَّ عَلَيْهِ، وَالنِّيَّةُ بِقَوْلِهِ: وَعَمَرُوا، التَّأخِيرُ. وَيَكُونُ عَمَرُوا قَائِمًا بِجَبْرِهِ هَذَا الْمُقَدَّرِ مَعْطُوفًا عَلَى الْجُمْلَةِ مِنْ إِنَّ زَيْدًا قَائِمًا، وَكِلَاهُمَا لَا مَوْضِعَ لَهُ مِنْ الإِعْرَابِ. الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى مَوْضِعِ اسْمٍ إِنَّ لِأَنَّهُ قَبْلَ دُخُولِ إِنَّ كَانَ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ، وَهَذَا مَذْهَبُ الْكِسَائِيِّ وَالْفَرَّاءِ. أَمَّا الْكِسَائِيُّ فَإِنَّهُ أَجَازَ رَفْعَ الْمَعْطُوفِ عَلَى الْمَوْضِعِ سَوَاءً كَانَ الإِسْمُ مِمَّا خَفِيَ فِيهِ الإِعْرَابُ، أَوْ مِمَّا ظَهَرَ فِيهِ. وَأَمَّا الْفَرَّاءُ فَإِنَّهُ أَجَازَ ذَلِكَ بِشَرْطِ خَفَاءِ الإِعْرَابِ. وَاسْمٌ إِنَّ هُنَا خَفِيَ فِيهِ الإِعْرَابُ. الْوَجْهُ الثَّلَاثُ: أَنَّهُ مَرْفُوعٌ مَعْطُوفٌ عَلَى الضَّمِيرِ الْمَرْفُوعِ فِي هَادُوا: وَرُوي هَذَا عَنِ الْكِسَائِيِّ. وَرُدَّ بِأَنَّ الْعَطْفَ عَلَيْهِ يَفْتَضِي أَنَّ الصَّابِئِينَ تَهَوَّدُوا، وَلَيْسَ الأَمْرُ كَذَلِكَ. الْوَجْهُ الرَّابِعُ: أَنْ تَكُونَ إِنَّ بِمَعْنَى نَعَمَ حَرْفُ جَوَابٍ، وَمَا بَعْدَهُ مَرْفُوعٌ بِالْإِثْبَادِ، فَيَكُونُ وَالصَّابِئُونَ مَعْطُوفًا عَلَى مَا قَبْلَهُ مِنَ الْمَرْفُوعِ، وَهَذَا ضَعِيفٌ. لِأَنَّ ثُبُوتَ أَنْ بِمَعْنَى نَعَمَ فِيهِ خِلَافٌ بَيْنَ التَّحْوِيلِ، وَعَلَى تَقْدِيرِ ثُبُوتِ ذَلِكَ مِنْ لِسَانِ الْعَرَبِ فَتَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ يَتَقَدَّمُهَا يَكُونُ تَصْدِيقًا لَهُ، وَلَا تَجِيءُ إِثْبَادِيَّةً أَوَّلَ الْكَلَامِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكُونَ جَوَابًا لِكَلَامٍ سَابِقٍ. وَقَدْ أَطَالَ الرَّخْشَرِيُّ فِي تَقْدِيرِ مَذْهَبِ سِيبَوِيهِ وَنُصْرَتِهِ، وَذَلِكَ مَذْكُورٌ فِي عِلْمِ النَّحْوِ، وَأُورِدَ أَسْئَلَةً وَجَوَابَاتٍ فِي الْآيَةِ إِعْرَابِيَّةً». البحر المحيط (325/04).

4 - مفهوم الأصل والفرع:

إن المفهوم الذي تبنى عليه علوم العربية كلها ومنها النحو العربي هو مفهوم الأصل والفرع. وقد جعل "الخليل" و"سيبويه" النظام اللغوي كله أصولاً وفروعاً، والفرع هو الأصل مع زيادة، أي مع شيء من التحويل، ويحصل ذلك بتفريع بعض العبارات عن عبارات أخرى تعد أبسط منها، وبالتالي أصولاً لها. ويبين ذلك النحاة العرب باللجوء إلى منهج علمي هو ما يسمونه حمل الشيء على الشيء أو إجراءه عليه بغية اكتشاف الجامع الذي يجمعها، وهو البنية التي تجمع بين الأنواع الكثيرة من الجمل، كما توضحها المتتاليات من الجمل التي أوردتها سيبويه: (16)

- مررت برجلٍ راكبٍ وذاهبٍ.
- مررت برجلٍ راكبٍ فذاهبٍ.
- مررت برجلٍ راكبٍ ثم ذاهبٍ.
- مررت برجلٍ راكعٍ أو ساجدٍ (بمنزلة إما وإما...).

- مررت برجلٍ راعٍ لا ساجد (إما غلط فاستدرك وإما نسي فتذكر) ... الخ.
وينطلقون في ذلك من أبسطها وهي التي تتكون من عنصرين مسند ومسند إليه؛ "زيد منطلق"،
فيحملون عليها جملا أخرى تكون فيها زيادة بالنسبة إلى الجملة البسيطة، بحيث تظهر بذلك كيفية
تحول النواة بالزوائد، وهي في الحقيقة مقارنة بنوية أساسها تطبيق مجموعة على مجموعات أخرى طردا
وعكسا. فالمذكر مثلا أصل والمؤنث فرع، والمفرد أصل والمثنى والجمع فرع عليه، والمكبر أصل والمصغر
فرع عليه، والجملة المبنية للفاعل أصل للجملة المبنية للمفعول.
والأصل عند الأئمة النحاة هو ما بُني عليه ولم يبن على غيره، ولا يحتاج إلى علامة لتمييزها عن
فروعها فله العلامة العدمية ∅ (Marque zéro).⁽¹⁷⁾

والنحو العربي العلمي، لا التعليمي أو الفلسفي، هو مجموع المثل والقواعد التي يمكن أن تفرع
بها وعليها جميع الإمكانيات التعبيرية الخاصة بالوضع العربي. فهذا الجانب الديناميكي للغة تجهله
اللسانيات البنوية التقليدية؛ لأنها تركز كل اهتمامها على تشخيص الوحدات في ذاتها وبالاعتماد
على تقابل الصفات الذاتية التي تميزها عن غيرها.⁽¹⁸⁾

5 - مفهوم الحركة والسكون:

مفهوم الحركة مفهوم غامض في أذهان كثير من المستشرقين واللغويين العرب الذين لم
يتجردوا بعد من التصورات التي ورثها الغربيون عن الحضارة اليونانية. ووجه الغموض في هذا المفهوم
راجع إلى عدم تمييز هؤلاء بين الحركة كصوت مسموع (أي مصوت=voyelle) لا يقوم مقام الحرف
ولكنه من جنسه، ولذلك سميت حروفا صغيرة، والحركة التي تمكن من إخراج الحرف ووصله بغيره،
والخروج منه إلى حرف آخر. وهذا هو المفهوم الذي يقصده القدماء من الحركة. قال الرماني في شرحه
لكتاب "سيبويه": «الحركة تمكن من إخراج الحرف، والسكون لا يمكن من ذلك» وقال أيضا: «وإذا
تحرك الحرف اقتضى الخروج منه إلى حرف آخر»⁽¹⁹⁾، ومعنى ذلك أن الحرف لا يحدث إلا في مدرج

17 (عبد الرحمن الحاج صالح، الجملة في كتاب سيبويه، المبرز، العدد 2، الجزائر، 1993.

18 (عبد الرحمن الحاج صالح، الأسس العلمية لتطوير تدريس اللغة العربية.

19 (يُنظر عن مفهوم الحركة عند علماء العرب في بحوث عبد الرحمن الحاج صالح، منها:

- تكنولوجيا اللغة والتراث اللغوي العربي الأصيل.

- الأسس العلمية لتطوير تدريس اللغة العربية.

- بحوث ودراسات في اللسانيات العربية ج01.

صوتي، أي في سياق متسلسل⁽²⁰⁾.

وقال ابن جني: «... لأن أصل الإدراج للمتحرك إذ كانت الحركة سببا له وعونا عليه»⁽²¹⁾. وعلى هذا الأساس، فإن الحركة عند العلماء الأوائل هي الدفعة والنقلة العضوية والهوائية التي تهيئ المتكلم لما بعدها، إذ يحتاج إليها للانتقال من مخرج حرف إلى مخرج حرف آخر، وكذلك من كلمة إلى كلمة أخرى⁽²²⁾. فهي إطلاق بعد حبس، عكس السكون الذي هو وقف لا يستلزم الانتقال إلى حرف آخر.

ويقول الخليل: «الخُرُوفُ الَّتِي بُنِيَ مِنْهَا كَلَامُ الْعَرَبِ ثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُونَ حَرْفًا لِكُلِّ حَرْفٍ مِنْهَا صَرْفٌ وَجَرَسٌ. أَمَّا الْجَرَسُ فَهُوَ فَهْمُ الصَّوْتِ فِي سُكُونِ الْحَرْفِ. وَأَمَّا الصَّرْفُ فَهُوَ حَرَكَةُ الْحَرْفِ». تهذيب اللغة (41/01). ثم يبين ذلك يقول «فَأَمَّا الْأَلْفُ اللَّيْنَةُ فَلَا صَرْفَ لَهَا، إِنَّمَا هِيَ جَرَسٌ مَدَّةٌ بَعْدَ فَتْحَةٍ، فَإِذَا وَقَعَتْ عَلَيْهَا صُرُوفُ الْحَرَكَاتِ ضَعُفَتْ عَنِ احْتِمَالِهَا وَاسْتَنَامَتْ إِلَى الْهَمْزَةِ أَوْ الْيَاءِ أَوْ الْوَاوِ، كَقَوْلِكَ عِصَابَةٌ وَعِصَائِبٌ، كَاهِلٌ وَكَوَاهِلٌ، سِعْلَةٌ وَثَلَاثُ سَعْلِيَّاتٍ». تهذيب اللغة (42/01-43). ومن هنا يمكن التمييز بين الجرس الحرف، وهو ما يدرك منه بالسمع، وهذا يخص الصوت في حد ذاته، وهو هوية الحرف لصوتية والسمعية، وبين صرف الحرف، وقد فسره بالحركة، وهو يخص إحداث الحرف والخروج منه إلى حرف آخر.⁽²³⁾

6 - مفهوم العامل:

يعد العامل، أو العمل النحوي⁽²⁴⁾ الفكرة الجوهرية التي تتأسس عليها نظرية النحاة العرب، ويعني القدماء بالعامل العنصر اللغوي الذي يؤثر لفظا ومعنى على غيره كجميع الأفعال العربية وما

20 (قال "الخليل" يوما وسأل أصحابه: كيف تقولون إذا أردتم أن تلفظوا الكاف التي في لك، والكاف التي في مالك، والباء التي في ضرب؟ فقيل له: نقول باء، كاف، فقال لهم: إنما جئتم بالاسم ولم تلفظوا بالحرف. وقال: أقول كة، وبنة، فقلنا: لم ألحقت الهاء، فقال: رأيتهم قالوا: عة فألحقوا هاء حتى صيروها يستطاع الكلام بها» الكتاب، ج3، ص320.

21 (ابن جني، الخصائص، ج1، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب، بيروت(د.ت) ص58.

22 (الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، تحقيق مازن المبارك، دار النفائس، ط5، بيروت 1986 ص70-71.

23 (عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج02، ص180.

24 (ترجم الأوربيون مصطلح "عمل" العربي، في القرن 13م إلى اللاتينية Regere بمعنى عَمِلَ في اللفظ الإعراب. ومنها جاءت كلمة Rection في النحو الأوروبي، ثم قلَّ اهتمام اللسانيات بهذا المفهوم حتى أحياه من جديد "شومسكي" باسم Government. ينظر: عبد الرحمن الحاج صالح، الجملة في كتاب سيبويه.

يقوم مقامها، فهو معقول من منقول⁽²⁵⁾. فكل حركة من الحركات الإعرابية التي تظهر على أواخر الكلم، وكذلك كل تغيير يحدث في المبنى والمعنى إنما يجيء تبعا لعامل في التركيب، فلا نجد معمولا إلا وتصور له العلماء الأوائل عنصرا لفظيا أو معنويا هاما هو العامل الذي يكوّن مع معموله زوجا مرتبا (couple ordonné). وههنا ينطلق النحاة من العمليات الحملية الإجرائية (حمل الشيء على الشيء) فيحملون مثلا أقل الكلام مما هو أكثر من لفظة وينطلقون من الجملة التي تتكون من عنصرين، كما سبق وأن أشرنا، نحو: زيد منطلق، ثم يشعرون في تحويلها بالزيادة مع إبقاء النواة (كما فعلوا باللفظة) للبحث عن العناصر المتكافئة، أي البنية التي تجمع وتشترك فيها الأنواع الكثيرة بل اللامتناهية من الجمل⁽²⁶⁾.

هذا ويصرح "سيبويه" في "الكتاب" أن عنصرين اثنين لا تكاد تخلو منهما أبدا البنية اللفظية للجملة، وهما العامل والمعمول الأول⁽²⁷⁾.

وتجدر الإشارة أن موضع العامل ليس له مكان معين في مدرج الكلام، بل هو موضع في داخل المثال أو الحد. فالعامل شيء، ومحتواه شيء آخر (كما أن الموضع شيء، وما يدخله من الزوائد شيء آخر). فقد يكون في موضع العامل "فعل تام" أو "فعل ناسخ" أو "إن وأخواتها" أو تركيب آخر⁽²⁸⁾ كما في المصنوفة التركيبية الآتية:

		موضع العامل	موضع المعمول الأول	موضع المعمول الثاني		
عمليات تحويلية للبحث عن العناصر المتكافئة	→				←	الابتداء (الخلو من العوامل اللفظية)
		∅	زيد	منطلق		
		إن كان حسبت أعلمت عمرا	زيدا زيد زيدا زيدا	منطلق منطلقا منطلقا منطلقا		عوامل لفظية
	→					
		قام	زيد	...		
		ضرب ضرب	زيد ت	عمرا عمرا		الأصل

25 (السيبوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق د. أحمد محمد قاسم، مطبعة السعادة، ط1، القاهرة 1976، ص03.

26 (عبد الرحمن الحاج صالح، المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات...، ص384-388.

27 (سيبويه، الكتاب، ج1، ص23.

28 (عبد الرحمن الحاج صالح، الجملة في كتاب سيبويه، ص13.

نستنتج من خلال هذا الجدول الحملي ما يلي:

- أ - أن النظرية النحوية العربية القديمة تنطلق من العمليات الحملية، فيجري النحاة تحويلات بالزيادة على النواة (أقل الكلام) كما فعلوا باللفظة للكشف عن العناصر المتكافئة داخل المصفوفة (الزمرة).
- ب - أن العامل أو المعمول الأول شيء، ومحتواه شيء آخر، ففي العمود الأول يدخل عنصر قد يكون كلمة أو لفظة أو تركيباً وله تأثير على بقية البناء، لذلك سمي عاملاً.
- ج - إثبات قانون مهم وهو امتناع تقسيم المعمول الأول على عامله، إذ إن عبارة "سيبويه": «أول ما تشغل به الفعل»⁽²⁹⁾ تستلزم شيئاً آخر وهو استحالة تقدم المعمول الأول على عامله مهما كان، فإذا تقدم تغيّرت بنية الجملة دون معناها الوضعي⁽³⁰⁾.

د - جواز التقديم والتأخير ما عدا المعمول الأول بالنسبة إلى عامله وفي حدود معينة.

- هـ - قد يخلو موضع العامل من العنصر المشار إليه بالعلامة Ø، فهذا هو الذي يسميه النحاة بالابتداء، ومعناه عدم التبعية التركيبية، وليس معناه بداية الجملة كما يعتقد بعض الدارسين.
- فمفهوم العمل إذن، هو مفهوم إجرائي يمكن أن تفرع عليه وبه جميع الإمكانيات التعبيرية الخاصة بالوضع اللغوي العربي. وقد تفتن "شومسكي" إلى أهمية مفهوم العامل النحوي في المنهج التحويلي على صورة لا تبتعد كثيراً على الصورة التي جاءت في النحو العربي⁽³¹⁾.

نص للتحليل:

يَقُولُ سَيْبَوِيهِ: «وَسَأَلْتُ الْحَلِيلَ -رَحِمَهُ اللَّهُ- عَنِ: مَرَرْتُ بِزَيْدٍ وَأَتَانِي أَخُوهُ أَنْفُسُهُمَا، فَقَالَ: الرَّفْعُ عَلَى هُمَا صَاحِبَيَّ أَنْفُسُهُمَا، وَالنَّصْبُ عَلَى أَعْيُنِهِمَا، وَلَا مَدْحَ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِمَّا يُمدَّحُ بِهِ. وَتَقُولُ: هَذَا رَجُلٌ وَأَمْرَأَتُهُ مُنْطَلِقَانِ، وَهَذَا عَبْدُ اللَّهِ وَذَلِكَ أَخُوكَ الصَّالِحَانِ؛ لِأَنَّهُمَا ارْتَفَعَا مِنْ وَجْهِ وَاحِدٍ، وَهُمَا اسْمَانِ بَيْنَا عَلَى مُبْتَدَأَيْنِ، وَأَنْطَلَقَ عَبْدُ اللَّهِ وَمَضَى أَخُوكَ الصَّالِحَانِ؛ لِأَنَّهُمَا ارْتَفَعَا بِفِعْلَيْنِ، وَذَهَبَ أَخُوكَ وَقَدِمَ عَمْرُو الرَّجُلَانِ الْحَلِيمَانِ. وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ: مَنْ عَبْدُ اللَّهِ وَهَذَا زَيْدُ الرَّجُلَيْنِ الصَّالِحَيْنِ، رَفَعْتَ أَوْ نَصَبْتَ؛ لِأَنَّكَ لَا تُثْنِي إِلَّا عَلَى مَنْ أَثْبَتَهُ وَعَلِمْتَهُ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَخْلُطَ مَنْ تَعْلَمُ وَمَنْ لَا تَعْلَمُ فَتَجْعَلَهُمَا بِمَنْزِلَةِ وَاحِدَةٍ، وَإِنَّمَا الصِّفَةُ عِلْمٌ فَيَمُنُّ قَدْ عَلِمْتَهُ». الْكِتَابُ (60/02).

29 (سيبويه، الكتاب، ج1، ص80.

30 (فجملة قام عبد الله ≠ عبد الله قام، انظر ما ردّ به "المبرد" على الأحفش والكوفيين الذين أجازوا تقديم المعمول الأول على عامله، انظر المبرد، المقتضب، ج4، تحقيق محمد عبد الخالق عزيمة، عالم الكتب، بيروت، ص128.

31 (عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث؛ بحث في المنهج، دار النهضة العربية، بيروت 1966، ص148.

7 - التمييز الواضح بين الكلام كبنية والكلام كخطاب:

لم يقتصر الفكر النحوي الخليلي في تحليلاته للغة وتفسير ظواهرها على الجوانب الشكلية (اللفظية) فحسب، بل تجاوز ذلك إلى الجوانب الوظيفية الإبداعية، فتحدث النحاة عن الكلام الذي تحصل به الفائدة، وعن معاني النحو وما يتيح لصاحب الخطاب من طرق متنوعة للتعبير عن المعاني المقصودة⁽³²⁾. فمادة الدراسة النحوية عندهم هي الحديث (لا الحكم) من حيث هو تبادل لفظي ذو فائدة، يتم بين قطبين أساسيين هما المتحدث والمتحدث إليه. ولقد ربط "سيبويه" والنحاة الأوائل، عند وصفهم للغة، بين كل ظاهرة من الظواهر الصرفية والنحوية (الإفرادية والتركيبية) بما يمكن أن تؤديه من معنى، لا من حيث اللغة، ولكن من حيث البلاغة والفائدة. وأوضح دليل على ذلك هو اهتمامهم (أي النحاة) بمفهوم الجملة، وتمييزهم الصريح والحاسم بين الكلام كبنية والكلام كخطاب⁽³³⁾.

ومن الجوانب التي اهتمت بها النظرية الخليلية الحديثة، تنبيه الباحثين إلى مفهوم الجملة وما يقتضيه التصور العربي لها. إذ يخطئ، في رأيها، من يعتقد أن "الكتاب" الذي اشتمل على أمهات المسائل اللغوية، وشهد له العلماء بالنضج والاكتمال، خال من مفهوم الجملة. فخلو الكتاب من المصطلح لا يعني بالضرورة خلوه من المفهوم، كما أن خلو كتاب "سوسير" من كلمة بنية لا يعني أبدا إهماله لمفهوم البناء، فاستعماله لمصطلح نظام يتضمن مفهوم البنية.

حقيقة إن "سيبويه" لم يستعمل مصطلح جملة، ولكن العلماء لاحظوا أنه يسميها كلاما، وإذا دقق القول استعمل مصطلح "الكلام المستغنى" ويقصد به: قطعة الكلام المستقلة لفظا ومعنى، يحسن بالمتكلم أن يسكت عند انتهائها؛ لأنها تشكل وحدة تبليغية يستفيد بها المخاطب علما معينا، فمقياس الجملة المفيدة أو علامتها عند "سيبويه" هو الفائدة (الإفادة)⁽³⁴⁾.

ومعلوم أنه لا فائدة إلا إذا كان الكلام تاما، أما الكلم المفردة فلا تتعلق بها الفائدة وإن تعلق بها الدلالة على معنى مفرد (لفظي). قال الزجاجي: «الاسم يدل على مسماه ... ولا يحصل منه فائدة مفردا حتى نقرنه باسم مثله، أو فعل أو جملة، وإلا كان ذكرك له لغوا وهذرا غير مفيد، وكذلك الحرف إذا ذكرته دلاً على المعنى الموضوع له، ثم لم تكتمل الفائدة بذكرك إياه حتى نقرنه بما

32) عبد الرحمن الحاج صالح، التحليل العلمي للنصوص بين علم الأسلوب وعلم الدلالة والبلاغة العربية، مجلة الميز، 6، ديسمبر 1995.

33) ينظر: عبد الرحمن الحاج صالح، الجملة في كتاب سيبويه، الميز، العدد 2، ديسمبر 1993.

34) المرجع نفسه، ص 8-9.

تكمل به فائدته، فهو والاسم في هذا سواء، لا فرق بينهما»⁽³⁵⁾.

وعليه فإن لفظة "كلام" كما لاحظ العلماء كافية الدلالة على مفهوم الجملة المفيدة عند "سيبويه". ومن يرجع إلى "الكتاب" يلاحظ أنها تواترت عشرات المرات من خلال العناصر الأساسية لتكونها وهما المسند والمسند إليه، والمبتدأ والمبني عليه⁽³⁶⁾.

وعلى الرغم من ظهور مصطلح "الجملة" في كتاب "المقتضب" للمبرد (ت: 285هـ)⁽³⁷⁾ إلا أن لفظة كلام ظلت سائدة تنافس المصطلح الجديد، حيث استعملها بعض اللغويين والنحاة، ومن ذلك مثلاً قول ابن جني عند تعريفه للكلام: «كل لفظ مستقل بنفسه، مفيد لمعناه وهو الذي يسميه النحويون الجمل، نحو، زيدٌ أخوك، وقام محمد، وضرب سعيدٌ، وفي الدار أبوك، وصة، ومة، ورويد...»⁽³⁸⁾. وقال "ابن آجروم" في مقدمة "الآجرومية": «الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع»⁽³⁹⁾، وهذا الذي يسميه النحويون جُملة.

ومن مظاهر الأصالة والإبداع، أيضاً، في الفكر النحوي الخليلي هو تمييز القدماء بين جانبيين اثنين، عند تحليلهم للغة، ليس بينهما أي تناظر كما يقول عبد الرحمن الحاج صالح، ويتمثل هذان الجانبان في:

1 - الجانب اللفظي الصوري الذي يخص اللفظ في ذاته وهيكله وصيغته، أي المعنى الموضوع له بقطع النظر عما يؤديه من وظيفة في الخطاب غير الدلالة الوضعية (دلالة اللفظ).⁽⁴⁰⁾

2 - وجانب الخطاب ويتمثل في كيفية استعمال تلك الألفاظ ومدلولاتها في عملية الإفادة، أي الإعلام والمخاطبة وتبليغ الأغراض بين ناطق وسامع في موقف اجتماعي حي يُعتبر "المتكلم" جزءاً

35 (الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، ص 49.

36 (سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 23-125-126-238-240. وج 2، ص 88-90-91-124.

37 (حيث يقول : «هَذَا بَابُ الْفَاعِلِ. وَهُوَ رَفَعٌ وَذَلِكَ قَوْلُكَ قَامَ عَبْدُ اللَّهِ وَجَلَسَ زَيْدٌ وَإِنَّمَا كَانَ الْفَاعِلُ رَفَعًا لِأَنَّهُ هُوَ وَالْفِعْلُ جَمَلَةٌ يَحْسُنُ عَلَيْهَا السُّكُوتُ، وَتَجِبُ بِهَا الْفَائِدَةُ لِلْمَخَاطَبِ». ج 1، ص 08.

38 (ابن جني، الخصائص، ج 1، ص 17.

39 (ابن آجروم المغربي، الآجرومية في مبادئ علم العربية، ص 06.

40 (وتتصف هذه الدلالة الوضعية بالتعدد والتنوع والاحتمال، عندما تكون خارج السياق فالكلمة المرفوعة مثلاً، قد تكون مبتدأ وخبراً وفاعلاً ونائب فاعل واسم كان وخبر إن وتابعا للموصوف.

منه إلى جانب السامع والكلام... (41).

وأوضح دليل على سلامة هذا التصور، في منظور الحاج صالح،⁽⁴²⁾ هو عجز النحويين المتفلسفين عن تحديد مفهوم الاسم في مقابل الفعل والحرف، حيث حددوه بتعريفات كثيرة، تأتلف حيناً وتختلف أحياناً، ولا يُعلم تعريف سلم من المعارضة والنقد.⁽⁴³⁾

ولكي يضبط تعريف الاسم ضبطاً دقيقاً، فيسلم تحديده من التناقض يرى بعض اللسانيين⁽⁴⁴⁾ أنه لا بد من مراعاة ما يلي:

أولاً: تحديد نوع الاسم، هل هو اسم مطلق، أم اسم مضارع للفعل والحرف، وهل هو متمكن تجري عليه حركات الإعراب، أو هو مستحق لها (أي متمكن أمكن أو متمكن غير أمكن...).

ثانياً: تحديد الجانب الذي يحدد فيه، هل يحدد في الجانب الوظيفي الدلالي الخاص بالإفادة، أم يحدد في الجانب اللفظي الصوري الخاص بالبنية والهيكل. فالاسم من حيث وظيفته الدلالية والإفادية (أي من حيث دلالاته على معنى) "هو لفظ يدل على شيء لا يكون حدثاً مع زمان"، ثم هناك "الاسم المطلق" والاسم المضارع للحرف والفعل. "فالاسم المطلق" يدل على ذات أي على كل شيء يصح الإخبار عنه⁽⁴⁵⁾ (بمعنى قابل أن يكون متحدثاً عنه).

أما من الجانب اللفظي الصوري، فالاسم كلمة أو عنصر قابل أو يحتمل دخول الزوائد عليه يمينا وشمالاً بحسب درجة تمكنه أو عدم تمكنه⁽⁴⁶⁾ إذ يصلح أن تدخل عليه "ال" وحروف الجر والتنوين والإعراب، ويمكن أن يضاف وأن يوصف... والشكل التالي يوضح ذلك:

41 (وبناء على هذا التمييز يرى العلماء، أن أعظم خطأ يرتكبه النحو العربي التقليدي (نحو ابن مالك)، وكذلك المدرسة البنوية في اللسانيات الغربية الحديثة هو انطلاقها في دراسة اللغة، وفحص معطياتها من الكلام الذي تم إنتاجه، أي بعد أن يكون منتجاً لسانياً حقيقياً، فتهتم بسلوك السامع دون أي عناية بسلوك المتكلم وأحوال إحداث الخطاب. انظر، د/ عبد الرحمن الحاج صالح، الجملة في كتاب سيبويه، المبرز 2، ص 19. وكذلك التحليل العلمي للنصوص بين علم الأسلوب وعلم الدلالة والبلاغة العربية، المبرز 6، ص 27.

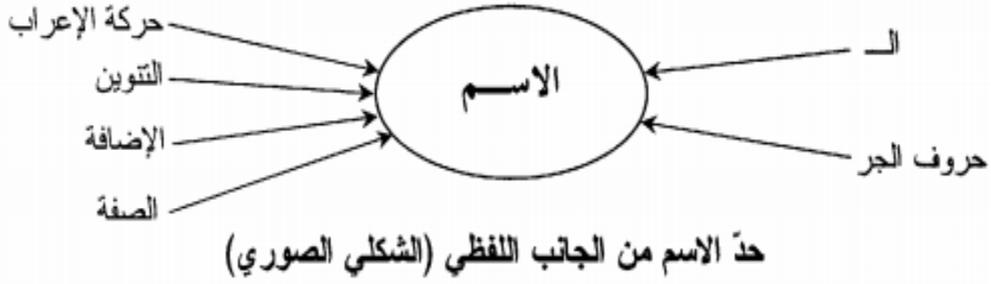
42 (عبد الرحمن الحاج صالح، الجملة في كتاب سيبويه، ص 9-10.

43 (الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، ص 48-51.

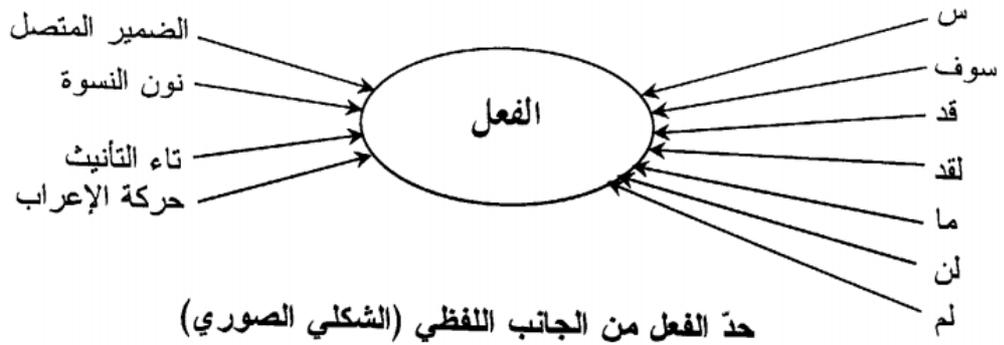
44 (عبد الرحمن الحاج صالح، المرجع السابق، ص 9-10.

45 (كما يقول الأخفش سعيد بن مسعدة: "ما جاز فيه نفعي وضربي"، يعني ما جاز أن يجز عنه، يُنظر: الزجاجي، الإيضاح، ص 49.

46 (لأن العلامات التي يحتمل دخولها عليه (السوابق واللاحق) لا تصلح مجتمعة لجميع أنواع الأسماء، فبعضها قد يصلح لبعض الأسماء دون البعض الآخر، فالجر مثلاً يصلح علامة ظاهرة للكثير من الأسماء، ولكنه لا يصلح لضمائر الرفع "كالتاء في نُحِثْ"، والتنوين كذلك يصلح لكثير من الأسماء المعربة ولكنه لا يصلح للمنوع من الصرف وكثير من المبنيات.



يتضح من خلال الرسم السابق أن زوائد اللفظة الاسمية تختلف عن زوائد اللفظة الفعلية، فالأولى، كما رأينا، تقبل دخول حروف الجر، والتنوين، والإضافة، وأل التعريف. والثانية قابلة لدخول السين، وسوف، وأدوات النفي، والضمائر المتصلة، وتاء التأنيث، وحركة الإعراب، كما في الشكل الآتي:



ويبدو تعمق القدماء في هذه المسألة (اللفظ الدال ومدلولاته الوضعية من جهة، واستعمال اللفظ ومدلولاته في عملية الإفادة) من خلال تحليلهم لوحداث تبدو في الظاهر، ولأول وهلة قطع كلامية غير قابلة لمزيد من التحليل والتفكيك لشدة التحام عناصرها المكونة لها، ومن ذلك مثلا ما استدلل به "ابن جني" من أصناف الدلالات اللفظية والصناعية والمعنوية لتحليل الكلمة لفظا وصيغة، سواء كانت فعلا أو اسما، ثم تعيين وحداتها الدالة الدنيا في كل منها حيث يقول: «... ألا ترى إلى قام ودلالة لفظه على مصدره، ودلالة بنائه على زمانه، ودلالة معناه على فاعله...» ثم يتبع هذه الفكرة بعد انتهائه من شرحها بفكرة أخرى فيقول: «... وكذلك اسم الفاعل، نحو قائم وقاعد؛

- لفظه يفيد الحدث الذي هو القيام والتعود.

- وصيغته وبنائه يفيد كونه صاحب الفعل.

وكذلك قَطَعَ وَكَسَّرَ، فنفس اللفظ ههنا يفيد الحدث، وصورته [أي صيغته وبنائه] تفيد شيئين: أحدهما الماضي، والآخر تكثير الفعل.

كما أن ضَارَبَ يفيد بلفظه الحدث، وبنائه الماضي وكون الفعل من اثنين [أي يدل على المشاركة]

وبمعناه على أن له فاعلا» (47).

نستنتج من هذا التحليل العميق، أن الكلمة، سواء كانت اسما أو فعلا، تشمل وحدات دنيا دالة، هي المادة الأصلية والصورة (أي الوزن والصيغة).

مادة (ف.ت.ح) التي تدل على الحدث (المعنى الوضعي)

فكلمة "مفتاح" مثلا تتكون من

صيغة (مفعال) التي تدل على اسم الآلة.

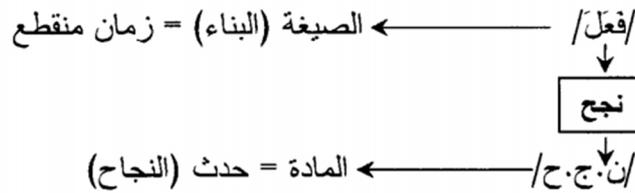
وكذلك ضَرْب، وضَارِب، ومَضْرُوب، تتكون من مادة أصلية هي (ض.ر.ب) التي تدل على الحدث (الضرب) في الوضع اللغوي، ومن أوزان أو صيغ هي:

- فَعَلَ التي تدل على حدث منقطع.

- وفَاعِل التي تدل على اسم الفاعل.

- ومُفْعُول التي تدل على الذي وقع عليه الفعل (اسم المفعول).

وبناء على هذا يمكن القول: إن صيغة (فَعَلَ x ض.ر.ب) غير صيغة (يفعل x ض.ر.ب) غير صيغة (فاعل x ض.ر.ب)، وأن الكلمة أو اللفظة هي نتيجة لتركيب هاتين الوحدتين، المادة والصيغة كما في الرسم البياني الآتي:



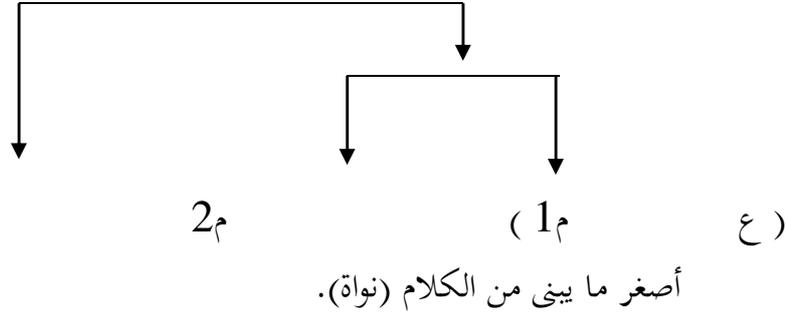
وتجدر الإشارة أن تمييز النحاة الأوائل بين الجانب اللفظي البنوي وبين الجانب الوظيفي الإبلاغي لم يقتصر على المستوى الإفرادي فحسب، بل تعداه إلى المستوى التركيبي، ليشمل الجملة المفيدة المستغنى عنها بمصطلح "سيبويه".

فصيغة الجملة العربية اللفظية، في رأي الحاج صالح⁽⁴⁸⁾، هي سياق من العامل زائد المعمول الأول، يكونان زوجا مرتبا هي اللفظة المني عليها، التي يتدئ بها الكلام، ويبنى عليها المعمول الثاني

47 (ابن جني، الخصائص، ج3، ص98-100.

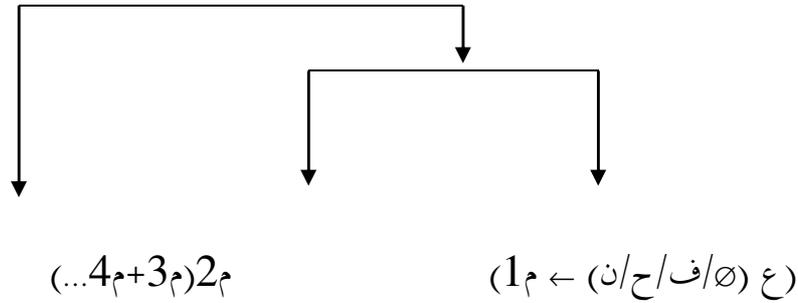
48 (عبد الرحمن الحاج صالح، الجملة في كتاب سيبويه، ص12-13.

(الذي يشغل موضع اللفظة المبنية). كما يمثلها الرسم الآتي:
(بناء) (49)



وتدخل على هذه النواة زوائد مثل التي تدخل في بنية الكلمة، ويمثل الأستاذ الحاج صالح للعلاقة القائمة بين هذه الوحدات التركيبية (النواة + الزوائد) بهذه الصيغة:

(البناء) (50)



ويتبين بهذا الشكل أن العناصر التركيبية هي عناصر خاصة مجردة، كما أن هناك عناصر أخرى أو زوائد (تدخل وتخرج) على النواة التركيبية، وتتمثل في المخصصات كالمفاعيل والحال وغيرها⁽⁵¹⁾. وللاشارة فإن هذه البنية اللفظية هي التي يعبر عنها النحاة مرة بترتيب اللفظ ومرة بالتغيير الإعرابي⁽⁵²⁾.

ويحذر الدكتور الحاج صالح من خطر التخليط في التحليل بين هذه البنية اللفظية (الهيكل البنوي للجملة) وصيغة الخطاب التي تتكون من مسند ومسند إليه (وهما ما لا يستغنى واحد منهما

(49) (ع = عامل) و(م = معمول).

(50) (ع = عامل)، (∅) (الابتداء المطلق)، (ف = فعل)، (ن = ناسخ)، (ح = حرف).

ينظر: خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، دار القصة للنشر، الجزائر، 2000م، ص 115.

(51) المرجع نفسه، ص 385-386.

(52) عبد الرحمن الحاج صالح، الجملة في كتاب سيوييه، ص 16.

عن الآخر، ولا يجد المتكلم منه بدءاً⁽⁵³⁾، وإلا لما احتاج النحاة الأوائل إلى تسمية أخرى مثل، المبتدأ و"البنى عليه"، ولما احتاجوا إلى تصور عنصر لفظي هام هو العامل وما يتعلق به من معمول.

وعليه، إذا كانت الصيغة الخاصة باللفظ تُوظَّف فيها مصطلحات العامل والمعمول الأول والثاني والفضلة، فإنه يستعمل للحديث عن الصيغة الخاصة بالخطاب المسند والمسند إليه والمخصصات... ويظهر هذا التصور بجلاء من خلال حديث النحاة عن الجملة "ذات التركيب المزدوج"، "كالشرط" مثلاً، فإنه من الجانب اللفظي، تعدّ "جملة الشرط" أو جملة "جواب الشرط" تامتين تتوفر فيهما الشروط⁽⁵⁴⁾، ولكن من حيث الخطاب والإفادة فهما (كل بمفردها) ناقصتان⁽⁵⁵⁾.
والخلاصة التي نخرج بها من خلال حديثنا عن تمييز النحاة الأوائل بين الكلام كبنية وبين الكلام كخطاب، أن هناك فرقا بين الأوضاع اللغوية الإفرادية والتركيبية (الصرفية والنحوية) وبين ظواهر الاستعمال لهذه الأوضاع، وإن تفسير بنية اللفظ باللجوء إلى اعتبارات تخص الإفادة أو العكس؛ تفسير ظواهر الإفادة والتبليغ بالاعتماد على اعتبارات تخص اللفظ هو غلط فادح، وسبب لأوهام كثيرة كما يقول "د. الحاج صالح"⁽⁵⁶⁾، لأن اللفظ في الوضع اللغوي يدل على معناه الموضوع له وعلى أكثر من معنى (أي أنه متعدد ومتغير ومحتمل خارج السياق)، أما في الخطاب الواحد الخاص

53 (سيوييه، الكتاب، ج1، ص23.

54 (لمزيد من المعلومات انظر الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح، الجملة في كتاب سيوييه، المبرز 2، ص15-16.

55 (وهو ما دفع ببعض المحدثين إلى اعتبار الشرط وجوابه أسلوبا لغويا يُكُون جملة واحدة تعبر عن فكرة تامة، "فمهدي المخزومي" مثلاً يرى أن تقسيم الجملة ذات التركيب المزدوج (الشرط) إلى جملتين عند القدماء هو نتيجة للتحليل المنطقي الفلسفي الذي اصطبغ به بحثهم. انظر، كتابه في النحو العربي نقد وتوجيه، ص57.

56 (عبد الرحمن الحاج صالح، الجملة في كتاب سيوييه، ص16-19.

فإن المتكلم لا يريد باستعماله إلا معنى واحداً.

وما يمكن استنتاجه من خلال عرضنا للمفاهيم الأساسية للنظرية الخليلية الحديثة هو قيمة "اللفظة" في مجال تحليل النظام اللغوي العربي وتشخيص وحداته، فهي أصغر وحدة في الخطاب أو الحديث، وعلى مستواها يتم اتحاد الوحدة اللفظية بالوحدة الإعلامية (الإفادة)، فهي المستوى المركزي أو المنوال اللساني الذي انطلق منه النحاة الأوائل في التحليل والتفسير إلى مستويات أخرى أكثر أو أقل (من اللفظة)، والجدول الآتي يبين المستويات التي توجد تحتها وفوقها:

المستوى 6	الحديث أو الخطاب
المستوى 5	↑ أبنية الكلام أو البنى التركيبية
المستوى 4	↑ اللفظيات (ج لفظة)
المستوى 3	↑ الكلم أو الكلمات
المستوى 2	↑ الدوال (العناصر الدالة كالصيغة والمادة و العلامة غير الظاهرة (العدمية))
المستوى 1	↑ الحروف
المستوى 0	↑ الصفات المميزة للأصوات

وتجدر الإشارة، ههنا، إلى أن الوحدات اللغوية المدرجة في كل مستوى من مستويات التحليل هي نتاج بناء لعناصر ووحدات المستوى الأدنى، تتركب على شكل تفرعي إجرائي⁽⁵⁷⁾. إن لهذا الإقرار "بقيمة اللفظة" في التحليل اللغوي العربي نتائج عظيمة ليس فقط على صعيد التحليل اللساني النظري، بل أيضا على مستوى تطبيقاته التربوية، إذ يمكن أن تستثمر نتائج هذا المفهوم عند اختيار المادة النحوية المراد تعليمها وكذلك عند ترتيبها وتحديد الكيفية التي ينبغي أن تعرض بها على المتعلمين⁽⁵⁸⁾.

وما يمكن استنتاجه من عرض المفاهيم والتصورات الأساسية للنظرية الخليلية، أن النحو عند "سيبويه"

57 (حولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، ص95.

58 (المرجع نفسه، ص99.

وشيوخه وتلاميذه منطق رياضي خاص مستنبط وفق أوضاع ومقاييس من واقع الاستعمال. فهو ثمرة أصول عديدة تفرعت منها فروع وفصوله. وإن وجود هذا الأثر المنطقي لدليل على مكانة الجانب العقلي فيه، وهو جانب كان موجودا إلى الجانب النقلي، وقد عاد هذا الجانب ضروريا في البحث اللغوي عند التحويليين؛ لأنه أداة أصيلة من أدوات بناء العلم، بدونه يتحول علم النحو إلى مجرد جمع وتصنيف.